جامعة تلمسان

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية

قسم العلوم الاجتماعية

شعبة علم الاجتماع

السنة الثانية –ليسانس-

مقياس علم الاجتماع في الجزائر-السداسي الثاني-

المحور الثاني: أهم القضايا والإشكالات السوسيولوجية في الجزائر

**المحاضرة السابعة: التعريب والتناقضات الاجتماعية في الجزائر**

يطرح الباحث **جمال لعبيدي** قضية التعريب في الجزائر وما حملته من تناقضات فيقول :إن تعريب التعليم كما يشير إليه البيان التقييمي لسنة 1980م قد فرض نفسه بسهولة في الفروع الأدبية منه في الفروع العلمية والتقنية، كما لاحظنا أن القطاع الاقتصادي وقطاع النشاط العلمي والتقني قد استبعدا حتى الآن من هذه العملية فماهي أوجه العلاقة بين التعريب والتناقضات الاجتماعية في الجزائر؟

1-**جذور الخلاف الثقافي في قضية التعريب:**

\*عشوائية عملية التعريب واقتصارها على بعض القطاعات يكشف الصراع الذي طبقت من خلاله سياسة التعريب وهو لا يتعلق بنوع مباشر من الصراع الطبقي، بل نوع من الخلاف الثقافي مرتبط بتناقضات داخلية وخارجية –التبعية الثقافية للمجتمع الجزائري-وتكون الساحة الثقافية مسرحا لهذه التناقضات، فمن خلال تصفح مضمون الندوة الوطنية حول التعريب التي انعقدت سنة 1975م وجمعت على وجه الخصوص الأنتلجانسيا المعربة حيث أوردت أن اللغة الفرنسية شكلت مشكلة اجتماعية عندما عمقت الهوة التي تفصل بين المسيرين من جهة والجماهير من جهة أخرى والخوف من تحول هذا التمايز اللغوي إلى تمايز طبقي مع مرور الوقت فالعمال أصبحوا منفصلين عن مسيريهم إلى حد الشعور بالدونية. لقد اخترقت هذه الاختلافات الثقافية النظام التكويني أيضا ويعمل وجود الثنائية الثقافية في التعليم منذ مدة طويلة من تعليم مزدوج سيطرت فيه الفرنسية في السبعينيات في الثانوية والجامعة يفتح الطريق أمام أحسن الفرص للعمل والتكوين وتعليم معرب، الأول خاص بالموظفين والثاني خاص بالطبقات المحرومة لقد ظهرت مع تعريب التعليم الابتدائي وجزء من التعليم المتوسط والثانوي فئات مهمة من الشباب ذات التكوين باللغة العربية ووصلت إلى سوق العمل أو الجامعة ولم تواكب الجامعة هذه الحركية إلا في وقت متأخر، فلم يدرس أساتذة التعليم العالي باللغة الوطنية سنة 1982م إلا بنسبة 14% من مجموع الطلبة وثمة بعض التناقضات الداخلية فعلى مستوى القاعدة أخذ التعريب في نظام التكوين حركة سريعة، أما على مستوى القمة حيث تنظم وتتخذ القرارات الخاصة بعمليات إعادة إنتاج نظام التكوين فان التعريب يعاني تأخرا كبيرا، بالإضافة إلى عائق آخر بين التعريب والعناصر الأخرى للنظام الاجتماعي، فباستثناء الجهاز التربوي و القضائي والديني فان أجهزة الدولة الأخرى السياسية والإدارية والاقتصادية لم تلتحق بعملية التعريب. إن عملية التعريب امتدت إلى الجامعة حيث نجدها محصورة في العلوم الإنسانية والاجتماعية دون الفروع العلمية والتقنية فأصبحت مشكلة تولي الوظائف تطرح بحدة أكثر لدى الخريجين المعربين في سوق العمل المحلي حاملين شعارات- يجب أن تكون اللغة العربية لغة أكل الخبز أي العمل.

\*سياسة التعريب تهديد مباشر لمواقع الإطارات الاجتماعية المفرنسة حيث التحق المثقفون المعربون نتيجة إبعادهم من النشاط الاقتصادي بالميدان الإيديولوجي لاستثماره وغدوا في نظر الجماهير الممثلين للهوية الوطنية فكانوا بذلك أكثر اقترابا إلى الجماهير من المثقفين الفرنسيين، مثل: حالة المعلمين الذين ترشحوا كمنتخبين محليا لديهم إحساس كبير لمسألة التبعية ومشاعر التمرد والرغبة في التغيير الاجتماعي الجذري ، كما يعتبرون التناقضات الداخلية وليدة التناقضات الخارجية ومصدرها تاريخي في الصراعات الحضارية فالحل يكمن في العودة إلى الجذور والقيم التي كانت وراء مجد الحضارة العربية الإسلامية. أما على الصعيد السياسي والاجتماعي فان مقاومة سياسة التعريب ارتكزت أساسا داخل أجهزة الدولة، علاوة على التأثير الكبير لمراكز الهيمنة الخارجية عبر التبعية الثقافية والتقنية فمقاومة حركة التعريب ومعارضتها إنما كانت توحي بأن مكانة الإطارات في جهاز الدولة لصبحت مهددة وأن التعريب تهديد مباشر لمواقعها الاجتماعية وقد فسر بأن التعريب هو إقصاء للجيل القديم من المدرسين المفرنسين في إنعاش مشاعر سوء النية من طرفهم..

2**-المقاومة غير المعلنة لسياسة التعريب:**

إن مقاومة التعريب لم يتم التعبير عنها بشكل علني في جميع الأحوال بل أخذت سبلا ملتوية منها موضوع العربية الشعبية إذ توجد في اللغات كلها فروق داخلية بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة بين لغة الجماهير ولغة المثقفين، هذه الفروقات تم التركيز عليها كثيرا من خلال بعض المؤشرات كتباطؤ المبادلات مع الأقطار العربية والاستعمار والتأخر الثقافي فموضوع العربية الشعبية قد حرف كي يستخدم ضد تقدم التعريب، بمعنى أن مقاومة التعريب امتد إلى حد أبراز التعارض بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة أي إلى درجة اعتبار اللغة الشعبية بمثابة اللغة الوطنية الجزائرية، في حين أن أحد مظاهر المقاومة الشعبية للاستعمار الفرنسي كان الدفاع عن اللغة المكتوبة عبر إنشاء المدارس القرآنية للدفاع عن اللغة العربية وإذا كان هناك تفاوت في امتلاك اللغة العربية المكتوبة فهذا يرجع إلى التناقضات الاجتماعية إذ أن اللغة الفرنسية لازالت تحتكرها طبقات محظوظة في الجزائر.

أما الشكل الأخر من مقاومة التعريب فيتمثل في موضوع الازدواجية العربية-الفرنسية في نظام التكوين، يعتبر مغريا للوهلة الأولى ويعتبره المدافعون عنه حلا للتناقضات في التعليم لأنه يبقي التفاوت بين المعربين والمتفرنسين ويضمن فضل الفرنسية للجميع –بمعنى التفتح على الفروع العلمية والتقنية- وهو موضوع مفضل للأنتلجانسيا المفرنسة ، ا ذ ينطوي على أمرين هما: أنه يسوي بين اللغة العربية واللغة الفرنسية الأمر الذي يتناقض مع شرعية اللغة العربية كلغة وطنية ورسمية، أما الأمر الثاني فان الازدواجية تبرز علاقات التبعية للغرب وهو ضد أهداف التعريب ، بل أن الازدواجية عززت اللغة الفرنسية وحافظت على موقع المفرنسين في الحقل اللغوي كما عززت الحفاظ على الوضع القائم.

من خلال البحث الذي قام به **جمال معتوق** فان علماء الاجتماع في الجزائر انقسما إلى قسمين بخصوص عملية التعريب، فيرى الفريق الأول أن الوضعية المتدهورة التي هي عليها السوسيولوجيا المحلية ناتجة عن تراكمات عدة منها التعريب الذي فرض من الفوق لأسباب إيديولوجية محظى دون مراعاة المعايير العلمية ودون تحضير أو تكوين أي العملية كانت استرجالية، وكاستجابة للإيديولوجية التي كانت سائدة آنذاك عمد المسؤولون المكلفين بالتعريب إلى تمرير هذا المشروع باللجوء إلى التعسف والمضايقات بكل أنواعها –اشتراط اجتياز مسابقة باللغة العربية من أجل التوظيف مثلا- ومع مرور الأيام لم تتعرب هذه الفئة بالرغم من ما أعطي لها من إمكانات –منح للتكوين في الخارج- ولكن لازالت لصيقة بتدريس السوسيولوجياا المفرنسة وحتى في مراكز البحث كما تظهر بصمات هذه العملية في كتابات هؤلاء. أما الفريق الثاني فيظهر تعاطفه الشديد مع عملية التعريب لعلم الاجتماع والتي تدخل في إطار ما يمكن تسميته باستعادة مقومات الشخصية الوطنية ولا يمكن الاستمرار في تدريس السوسيولوجيا بلغة أجنبية كانت إلى حد بعيد لغة المستعمر، ما يعني أن مشكل اللغة العربية هو مفتعل من طرف النخبة المفرنسة والذين كانوا يدافعون عن اللغة الفرنسية إنما كانوا يدافعون عن مصالحهم ومواقعهم في الحقل الجامعي وكانت الجامعة حكرا لهم، فاتهام اللغة العربية بأنها لغة تخلف العلوم الاجتماعية مجرد دعاية مغرضة لا أساس لها من الصحة. في هذا الصدد يرى **مصطفى بوتفنوشت** أن التعريب له ميزتان أساسيتان هما: الاولى تتمثل في استرجاع السيادة الوطنية واللغة العربية كمكسب تاريخي، أما الثانية فهي سلبية تتمثل في ضعف البحث العلمي باللغة العربية والضعف في المراجع بالغة العربية مقارنة بالمراجع المفرنسة مما انعكس على عملية التطور المعرفي هذا الاختصاص.

عوضا أن تكون عملية التعريب وسيلة لإجماع والتلاحم بين السوسيولوجين الجزائريين نجدها أنها عملت على تعميق الجرح والتفرقة ،بل التناحر الذي لازالت بصماته إلى غاية اليوم بوجود تكتلات وجماعات منقسمة على بعضها البعض يعود وجودها إلى الانقسام اللغوي .

يرى **جابي عبد الناصر** أن هذا الانقسام اللغوي بين المعرب والمفرنس نجد مبرراته التاريخية كمنتوج للحالة الاستعمارية، بدأت بوادرها في الظهور داخل الحركة الوطنية نفسها فتكونت أحزاب وجمعيات كرست في جانب كبير منها هذه الانقسامية التي تميز النخبة المتعلمة فكان مثقف جمعية العلماء المسلمين المعرب الديني أو الشبه ديني مقابل المثقف الليبرالي أو الشيوعي أو حتى الوطني مع بعض الخصوصيات المعروفة التي ميزت الحركة الوطنية الاستقلالية كحزب نجم شمال إفريقيا ، حزب الشعب ، حركة انتصار الحريات الديمقراطية واستمرت الصورة إلى ما بعد الاستقلال فالذي ساد هو منطق الانقسام لا منطق التكامل، إذ أصبح من الشائع والمقبول أن يهتم المثقف العرب بمواضيع التاريخ والدين وكل ما له علاقة بالجوانب والإيديولوجية التي ليس من حق المثقف المفرنس التعامل معها .

يشير **عروس الزوبير** إلى أن الجهود المبذولة في الجزائر من أجل تمكين اللغة العربية من الغلبة قد أدت كما ورد في تقرير التنمية الإنسانية العربية إلى نتيجة عكسية وخسارة معرفية بالغة بفعل التحول من استعمال اللغة الفرنسية إلى استعمال اللغة العربية الذي تم فرضه على جيل كامل من المهنيين...كان من المفروض أن يتم وفق إستراتيجية تقوم على مبدأ مشاركة جميع الفاعلين في المجتمع المكونين لقيادته ونخبته المعرفية والذي يجمعهم قاسم المواطنة بمفهومها الواسع.

**للاطلاع أكثر، أنظر المراجع آلاتية:**

1- جمال لعبيدي: التعريب والتناقضات الاجتماعية في الجزائر، في كتاب جماعي-الأزمة الجزائرية، الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مركز دراسات الوحدة الوطنية ، بيروت،1996م.

2- جمال معتوق: علم الاجتماع في الجزائر –من النشأة إلى يومنا هذا- بدون دار النشر، ط1، 2006م.

3- جابي عبد الناصر: الجزائر-الدولة والنخب-دراسات في النخب والأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية، منشورات الشهاب، الجزائر ، 2008م.

4- الزوبير عروس: التعليم العالي، المسالة الغوية وحال العلوم الاجتماعية في الدول المغاربية:الجزائر نموذجا، في كتاب: الجزائر بعد 50 سنة، حوصلة المعارف في العلوم الاجتماعية والإنسانية 1954-2004، منشورات مركز البحث في الانثربولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر، 2008م.